فصل

في منشإ الدروز

من المعلوم ان اكثر نكبات الشام كانت عَلَى يد طائفة الدروز وسببها المنافسة والمباغضة بينها وبين طائفة الموارنة وسياسة الحكام الاتراك وكرههم للطائفتين . فاما سياسة الحكام فسوف نعود اليها ويظهر من سرد الحوادث الَّتِي سنشرحها ما فيهِ الكفاية . واما المباغضة الكائنة بين النصارى والدروز من ناحية وبينهم وبين المسلمين من ناحية اخرى فقد بيَّنَّا بعضها في الفصل الذي مرَّ ولا بدَّ من ايراد حكاية الدروز واصلهم هنا حتى يكون القارئُ عَلَى بينةٍ من الامر

ويطلق على الدروز هٰذَا الاسم لانهم اتباع رجل من اهل الديانة الباطنيَّة فارسي الاصل اسمهُ نشتكين الدرزي كان اوَّل من دعا الناس إِلَى الاعتقاد بألوهيَّة الحاكم بامر الله معبود الدروز وهٰذَا طرف من سيرة هٰذَا الطاغية الذي يعبدهُ الدروز عبادة سرّيَّة

وُلد الحاكم بامر الله في مدينة القاهرة سنة ٣٧٥ هجريَّة وهو السادس بين الخلفاء الفاطميين واوَّل واحد منهم وُلد في مصر وبويع بالخلافة بعد والدهِ العزيز سنة ٣٨٦ وهو في الثانية عشرة من عمرهِ فاستهلَّ حكمهُ بقتل مربيهِ ووزيرهِ لانهُ كان يمنعهُ من اللعب واللهو ولما صار في السابعة عشرة من عمرهِ اظهر اهتمامًا كبيرًا في امور الملك

وظهرت عليهِ لوائح الفراسة والذكاء ولكنهُ اظهر ميلاً غريبًا الى الاستبداد وسفك الدماء ولم يروَ ان واحدًا من الناس ظلم قومهُ قدر ما ظلم هٰذا الطاغية المصريين وغيرهم ممن كان تحت امرهِ . وجعل في اول الامر دأبهُ الركوب عَلَى الخيل والتجوُّل في شوارع القاهرة ليرى خضوع الناس لهُ وتسابقهم إِلَى اكرامهِ وكان يكرههم عَلَى تعظيمهِ اكراهًا ولم يمل اليهِ الناس من اول الامر لانهُ كان عَلَى مذهب الشيعيَّة والباطنيَّة (هم القائلون بان لآيات القرآن معنى غير الظاهر وان روح النبوَّة انتقل من آدم إِلَى غيرهِ من الاولياء حتى صار إِلَى خلفاء الفاطميين) وكتب اوراقًا يشتم فيها اكابر الصحابة وفي مقدمتهم ابو بكر وعمر بن الخطاب وكل من والاهما ولم يجسر القوم على شق عصا طاعتهِ لان بلاد الشام وطرابلس الغرب وما يليها كانت من املاكهِ وكان لهُ جنود منها طوع امرهِ يخشى الناس شرهم

وكان الحاكم بامر الله — وسمى نفسهُ بعدئذٍ الحاكم بامرهِ — شديد الوطأة عَلَى اليهود والنصارى فامر الاسرائيليين بلبس الملابس الصفراء وتعليق قطع من الخشب ثقيلة عَلَى صدورهم وحتم عَلَى النصارى بلبس الملابس الزرقاء ووضع الصلبان الكبيرة في اعناقهم واكثر من اضطهادهم حتى انهُ سمح للناس بوضع اليد عَلَى املاكهم وخرب خمسمائة كنيسة من كنائسهم وضم اوقافها إِلَى املاك اعوانهِ فاضطرَّ العدد الوافر منهم ان يعتنق الاسلام فرارًا من الظلم ولكنهُ عاد فرضي عنهم يومًا وامر باطلاق الحرِّيَّة للاديان فرجع ستة آلاف شخص إِلَى دينهِ يوم صدور ذلك الامر . ولم يكن ذا رحمة بالمسلمين فانهُ شدد الوطأة

ايضاً عَلَى كل مسلمٍ من اهل السنة وفتح لهم المكاتب لتعلمهم طرق العبادة الشيعيَّة فكان اذا لم يقبل الناس عليها يقطع اعناقهم او يزجهم في السجن او يعذبهم عذاباً كبيراً حتى ضجَّ الناس من هول ظلمهِ ولكنهم لم يجسروا عَلَى الثورة لما تقدم عن خوفهم من عساكرهِ ولكن البعض عصوهُ في طرابلس الغرب وقام من بينهم واحد اسمهُ الوليد ابو ركوه فقاد الثائرين واشهر عَلَى الحاكم حرباً عوانًا وكسر جيشهُ في عدة مواقع فسير الحاكم عليهِ قائدهُ الفضل بن محمد سيفي جيشٍ من العرب والسوريين ولم يفلح في اول الامر حتى ان ابا ركوه لما رأى نجاح عملهِ تقدم إِلَى البلاد المصريَّة وفاجأ الجيزة عَلَى غير استعدادٍ من اهلها وحكومتها فاستولى عليها وتهدد القاهرة بالهجوم وفرَّ الحاكم بامر الله إِلَى بلبيس . ولكن القدر لم يساعد هٰذا القائد عَلَى نوال بغيتهِ فانهُ ما عتم ان نال الظفر حتى التقى بعساكر الفضل وانكسر في معركة عظيمة فتقهقر وفرَّ من وجه خصمهِ والتجا إِلَى بلاد البرابرة فعاد الحاكم إِلَى مقرهِ ظافراً وارسل إِلَى زعيم بلاد النوبة يطلب منهُ تسليم العاصي فسلمهُ ولما عاد ابو ركوه إِلَى مصر زجهُ الحاكم في السجن زماناً وعذبهُ طويلاً ثم قطع عنقهُ ومن ذلك اليوم استتبَّ الامر لهُ وخاف الناس ان يظهروا تذمرهم منهُ فاحتملوا ظلمهُ بالصبر وكان هو قد احسَّ بان التناهي في الاستبداد جلب عليهِ ما قاساهُ في اول هذه الثورة من الويل والوجل فاعتدل في امورهِ بعض الاعتدال ولكن حلمهُ لم يدم طويلاً لان الطبع غلاب فعاد إِلَى اسوإ مما كان عليهِ وجار بالعباد جوراً لم يسمع بهِ الاوائل والاواخر

وكان هٰذا الطاغية يكره النساء ويشدد عليهنَّ بالاختفاء والتستر فلا يصرح لهنَّ بالسير في السكك من دون نقاب ثم امر بحبسهنَّ في بيوتهنَّ مدة سبع سنين ونبه عَلَى عاملي الاحذية بعدم صنعها لهنَّ حتى لا يتمكنَّ من الخروج . وحدث انهُ كان في احد الايام مارًّا امام حمام في مصر وسمع لغطًا وصياحًا فسأل عن السبب قالوا انهُ حمام للنساء فوقف عَلَى بابهِ وارسل في الحال وراء البنائين وامرهم ان يسدوا ابواب الحمام واقام الحراس عَلَى البناء من خارجهِ حتى لا تفر احداهنَّ وهكذا امات اربعاية امرأة جوعًا بلا ذنب ولا سبب . واشتهر في اعطاء الاوامر المتناقضة الغريبة فكان يأمر يومًا بمنع بيع الخمر وكسر آنيتها حتى انها كانت تجري في شوارع مصر جداول ولا يقرب الناس منها ويومًا يامر بمنع اكل السمك او يشير بغير هٰذا ممَّا ضاقت صدور الناس بسببهِ

وفي سنة ٤٠٧ للهجرة جاهر هٰذا الظالم بما كان ينويهِ واعلن انهُ اله فوافقهُ عَلَى ذلك فارسي اسمهُ حمزة بن علي كان وزيرًا لهُ وآخر من اهل الديانة الباطنية اسمهُ نشتكين الدرزي ودار هٰذا الاخير في جوامع القاهرة يشتم الاولياء وآل الصحابة ويبشر بالوهية الحاكم بامرهِ فقام عليهِ الناس يومًا في وسط الجامع ونكلوا بهِ وكانوا على وشك قتلهِ لولا ان يتداركهُ بعض الجند فلما رأى الحاكم تعصب القوم عليهِ وعَلَى ما جورهِ اضمر لهم السوء ولكنهُ لم يقوَ عَلَى ابقاء الدرزي في مصر فبعث بهِ إِلَى بلاد الشام وكانت تابعة لهُ كما مرَّ وهناك لقي الدرزي ما لم ينتظرهُ من النجاح وسنعود إِلَى ذكرهِ . واما الحاكم فانهُ عزم من

بعد ذلك الحين عَلَى انفاذ مآربهِ في الناس وساعدهُ عَلَى ذلك وزيره حمزة فاصدر الاوامر إِلَى المسلمين ينهاهم فيها عن الحج إِلَى مكة وعن ارسال الكسوة اليها وامر بابطال الصلوات الخمس والصوم في رمضان والغى عيد الفطر وعيد الاضحى واظهر في ذلك الحين — سنة ٤٠٨ — ميلاً إِلَى النصارى واليهود فاطلق لهم الحريَّة في دينهم وساعدهم عَلَى بناء الكنائس وكان يقول لبعض الناس انهُ لا يليق بهِ ان ينتمي إِلَى دينٍ واحدٍ من الاديان وهو يعبدهُ الكل عَلَى السواء . كل هٰذَا وهو يضمر السوء للذين لم يوافقوا رسلهُ وماجوريهِ ويهيئ الاوامر اللازمة لايصال الاذى اليهم . وبدأَ في ذلك الحين بعمل الطرق لاقناع الناس بعلمهِ واقتدارهِ فكان يستأجر الجواسيس والارصاد بالالوف ويبعث بالنساء العجائز إِلَى بيوت الناس ليلقينَ اليهِ كل امرٍ سمعنهُ من اهل مصر وكل حادثة رأَينها وصار اذا جاءهُ واحد من الذين حفظ عنهم الحكايات عن عجائزهِ يقص عليهِ اخبار بيتهِ ويعلمهُ بحكايات نفسهِ فيعجب الرجل ويظن ان في الخليفة قوة خارقة لقراءة الافكار . ولما انتشر هٰذَا الامر وكثر تحدث الناس بهِ واظهر الحاكم باسرهِ لمن حولهُ يوماً بعد يوم انهُ يعلم اسرارهم ونواياهم ويعرف الذي حدث بينهم وفي بيوتهم جعل البعض منهم يعتقدون ان دعواهُ صحيحة وانهُ اله يعرف الغيب . ثم انهُ امر الناس بتعظيمهِ ومخاطبتهِ كما تخاطب الالهة فكان اذا جاءهُ واحد يسجد امامهُ سجوداً ويقول لهُ ما معناهُ السلام عليك يا ايها الفرد الصمد الذي بيدك الحياة والموت ومنك الغنى والفقر ولم يلذ لهُ امر قدر ما كان هٰذَا السلام يلذ

لهُ ويطربهُ . وكثر تحدث الناس في دعواهُ وقوي انصارهُ فصاروا يجاهرون بالوهيتهِ ولا يخشون قيام الناس عليهم حتى ان بعضهم لما زار مكة بقصد الحج وقف امام الكعبة وضربها بسيفهِ عَلَى مرأًى من الحجاج والواقفين وقال لهم يا ايها الناس عَلَى مَ تجهلون وحتى مَ تكفرون انكم تعظمون هٰذَا الحجر الذي لا يضركم ولا ينفعكم وقد نسيتم القدير الذي في مصر ذلك الذي يحيي ويميت

وكان الحاكم ولعًا بركوب الحمير ولبس الملابس السوداء والتجوُّل في انحاء مصر ليلاً ونهارًا . وحدث انهُ كان يطوف عَلَى عادتهِ في احدى الليالي فقابلهُ بعض الناس من اعدائهِ ووضعوا ورقةً في يدهِ ظنها شكوى فلما فضَّ خاتمها وقرأها وجدها مشحونة بالشتائم واللعنات عليهِ وعَلَى كل واحد يعاونهُ عَلَى كفرهِ . ولقي في احد الايام تمثال امرأة واقفة في السوق بغير نقاب فعلم انهم عملوا ذلك لنكايتهِ واهتمَّ من بعد ذلك في ما ياتيهِ لمقاومة هؤُلاء القوم والشروع في ما كان ينويهِ من الشرّ لهم فجمع رؤَساء جيشهِ وكان اكثر العساكر والقوَّاد عندهُ من البربرة واهل طرابلس وغيرها وامرهم باحراق مصر من اولها الى آخرها وصرَّح لهم بنهب كل ما تصل اليهِ ايديهم وامتلاك البنات والغلمان وعمل كل ما يريدونهُ من الموبقات ففرح عساكرهُ الانذال بهذا وشرعوا في انفاذ امرهِ فاضرموا النار في كل انحاء المدينة واعملوا السيف في اهلها ثلثة ايام كاملة بليت فيها مصر بما لم ترهُ في زمانها السابق وجرى دم القتلى في الازقة والطرق واندلع لسان النار في بيوت مصر المتلاصقة فلم يبقِ منها شيئًا وفرَّ الذين امكن لهم الفرار

من الناس فكان الذي ينجو من النار وسقوط الابنية عليهِ يقع في يد العساكر فيقتلونهُ وينهبون ما معهُ . كل هٰذا والخليفة يذهب يوماً بعد يوم إِلَى القرافة ليرى بعينهِ كيف يحلُّ البلاء برعاياهُ واذا جاء اليهِ الناس يسترحمونهُ ويرجونهُ ان ينهي عبيدهُ وعساكرهُ عن فعالهم قال ان لعنة الله عليهم اني لم آمرهم بشيءٍ من هٰذا انما هم يبطشون ويفتكون بغير علمي . واجتمع في اليوم الرابع مشايخ المسلمين في الجوامع وفي ايديهم المصاحف فصاحوا من ظلم هٰذا السلطان واستعانوا بروءة بعض العساكر من الاتراك فاستمالوهم اليهم وتعاهدوا معهم عَلَى الاخاء ومقاومة هٰذا الظالم وانقاذ الذين بقوا من يد العساكر السود الذين امرهم السلطان بقتلهم فارسل العساكر إِلَى السلطان بلاغاً بهذا المعنى وذهب اليهِ المشايخ فتراموا عَلَى اقدامهِ وقالوا له اننا عبيدك وهذه مدينتنا تعمل فيها النار واولادنا ونساؤنا يفتك بهم البرابرة الكفار فاجرنا من هٰذا العذاب وان كان لنا ذنب فاسمح لنا بالخروج من هذه البلاد او اذا كان هؤلاء العتاة يقتلوننا ويحرقون منازلنا بلا ذنب ولا سبب فاسمح لنا ان نعتبرهم ممَّن عصى امرك ونقوم عليهم مع عساكر الاتراك فنقتلهم . فاجابهم ان الذي جرى كان بغير امرهِ وفوض الاتراك بمحاربة العساكر السود وبعث اليهم الامر بالكف عما كانوا يفعلون عَلَى مسمعٍ من الحاضرين ولكنهُ الحقهُ بامرٍ آخر سري يأمرهم فيهِ بمداومة الحرق والقتل فلما لحظ القوم منهُ ذلك استعدوا لمحاربتهِ وارسلوا اليهِ بلاغاً بذلك فخاف العاقبة وركب حمارهُ ونزل في الحال الى الاسواق فامر العساكر بالامتناع عما كانوا يفعلون ثم اصدر عفواً

عامًّا عن كل ساكنٍ في مصر بناءً عَلَى طلب المشايخ وخلص الناس من ذلك البلاء الشديد

وكان يحتال بكل حيلة لاقناع الناس بقدرتهِ وعلمهِ كما مر من ذلك انهُ ارسل وراء بعض الاشقياء وعلمهم ان يسرقوا من مخازن مصر في احدى الليالي اشياءً معلومة فاطاعوا امرهُ وكان قبل ذلك قد امر الناس بترك بيوتهم ودكاكينهم مفتوحة مدة الليل بدعوى ان السرقة لا تجوز في ايامهِ وتعهد لكل من يسرق لهُ شيءٌ بردهِ ومعرفة السارق فلما دار الذين استاجرهم للسرقة واخذوا ما اخذوهُ تقدم اليهِ اصحاب الحاجات يشكون اليهِ الامر فقال لهم ان اذهبوا إِلَى ابي الهول الذي صنعتهُ يخبركم بما تريدون وكان قد صنع تمثالاً من النحاس عَلَى صورة ابي الهول ووضع من داخلهِ رجلاً يعرف اسماء السارقين والذين سرقت الاشياء من دكاكينهم فاذا جاء الرجل منهم وقص حكايتهُ اجابهُ الرجل من داخل الصنم ان اذهب إِلَى بيت فلان تجد حاجتك وصحت اقاويلهُ فهال الناس الامر واعتقدوا في الخليفة اشكالاً والوانًا. ثم جيء بالسارقين وكانوا اربعماية شقي عدًّا فامر الحاكم بامرهِ بشنقهم جزاء جنايتهم فشنقوا جميعًا ضحيَّة حيلهِ وعم الامن في المدينة حتى لم يعد الناس يسمعون بجناية او سرقة لان صاحب النفس الامارة بالسوء صار يعتقد ان قدرة السلطان تكشف فعلهُ ويشنق حتى ان الناس كانوا يمتنعون عن التقاط ما يجدونهُ في الطرق من النقود او الامتعة ويظل الشيء في الطريق والناس تمرّ إِلَى جانبهِ ولا تمسهُ حتى يجيء صاحبهُ وياخذهُ. وحدث يومًا ان تاجرًا اودع عند صديقهِ مبلغًا

كبيراً من المال بلا سند ولا شهود ولما طالبهُ بهِ انكرهُ الرجل عليهِ فقص التاجر حكايتهُ عَلَى السلطان وطلب اليهِ الانصاف فامرهُ الحاكم ان اذهب وقف في الغد امام دكان صاحبك حتى اذا مررت بهِ تجيء اليَّ وتحدثني كانك صديق قديم لي ففعل الرجل ذلك ورأى الذي انكر عليهِ المال انهُ يحدث السلطان بغير تكلف فخاف العاقبة واسرع في الحال الى بيتهِ فجاء بالمال المطلوب وسلمهُ الى صاحبهِ ولما علم الحاكم بالحكاية امر بشنق الرجل عَلَى باب دكانهِ فشنق والناس يعجبون ويحسبون كل هٰذا يدل عَلَى ان هٰذا السلطان تفرد في بعض الامور وكان عندهُ ذكاء وقوة في الحيلة وجرأة عَلَى الامور ولكنهُ تفرد ايضاً بالظلم والتلذذ بسفك الدماء وقتل الابرياء إِلَى درجة لم تروَ عن غيرهِ من الظالمين . وكان لهُ منظر مهيب وعينان تتقدان مثل الجمر وصوت جهوري ووجه يرجف الابدان حتى ان الناس كانوا يتحاشون النظر إِلَى وجههِ خوف ان يصيبهم من عينهِ ضر ويظن البعض ان ذلك كان من دلائل الجنون او من ازدياد الحدة في ذهنهِ . ولكن المظالم الَّتي اتاها عرضتهُ للخطر وكان لهُ اخت اسمها ست الملك يكرهها كما يكره سائر النساء واتهمها يوماً بامور لا تليق حتى انهُ ارسل وراء بعض الاطباء وكلفهم ان يذهبوا اليها في مهمة صعبت عليهم وعليها فلما ان سمعت بذلك وعلمت ان ساعة افتضاحها او موتها قربت ارسلت وراء رجل من اعوانها اسمهُ ابن دواس كان يكره السلطان لجورهِ وظلمهِ وعرضت عليهِ قتل اخيها فرضي الرجل بذلك واستعد للفتك بمولاهُ في الغد . وكان الحاكم في تلك الايام يركب كل يوم حمارهُ

و يقصد القرافة فلما خرج في صباح احد الايام سنة ٤١١ هجرية قال لامهِ ان ذلك اليوم كان خطيراً لديهِ وانهُ رأى في الكواكب ان سيمر عليهِ خطر جسيم فان خلص منهُ عاش طويلاً وان ظهرت لهُ في القرافة علامة يعرفها كان هلاكهُ محتماً فلما صار في المحل المعهود تطلع فيما حولهُ فرأى العلامة ٱلَّتي كان يخشى عاقبتها وصاح في الذي معهُ قائلاً انَّا لله وانَّا اليهِ راجعون ظهرت العلامة ودنت المنيَّة ولم يتم قولهُ هٰذَا حتى طلع عليهِ ابن دواس في بعض الرجال فقتلوهُ واخفوا جثتهُ وهكذا استراح الناس من شر هٰذَا الطاغية

هذه سيرة الحاكم بامرهِ معبود الدروز وهو الذي ارسل نشتكين الدرزي عَلَى ما قدمنا إِلَى بلاد الشام ليبشر بهِ الهًا فجاء هٰذَا الرجل وادي التيم في اطراف لبنان من ناحية الجنوب ولقي هناك قبيلة من العرب كان اجدادهم يميلون إِلَى الديانات الباطنيَّة ويتظاهرون بالاسلام عَلَى كرهٍ منهم وعليهم امراء من آل تنوخ فاكرموا وفادتهُ وقبلوا دعوتهُ وكان الدرزي في اول الامر يقر لحمزة بن علي بالسيادة والرئاسة لان هٰذَا الوزير كان من علماء الباطنيَّة ولكنهُ تظاهر بالاستقلال وحب الرئاسة لما رأى النجاح وبلغ حمزة الامر فعزل الدرزي وحقرهُ في عيون اصحابهِ الذين قبلوا تعاليمهُ وارسل واحداً بدلهُ اسمهُ مقتنى بهاء الدين فاتم عمل الدرزي ووزع عَلَى اتباعهِ كتباً ورسائل من حمزة فيها تعاليم دينهم السريَّة وخلاصتها عبادة الحاكم بامر الله وتسميتهِ الحاكم بامرهِ وعدم الاقرار بصحة القرآن وغير هٰذَا من الامور واطلق عَلَى هذه الطائفة اسم الدروز لانهم اتبعوا تعاليم

الدرزي ولم يقدروا عَلَى الخلاص من هٰذَا الاسم مع انهم صاروا في آخر الامر يكرهون الدرزي ويحتقرونهُ ويسمون انفسهم بالعقال او الموحدين

وقد اشتهر عن الدروز بين عامة الناس والجهلاء انهم يعبدون العجل وقد ذكر مؤرخو الافرنج ذلك في كتبهم من ايام الحروب والصليبيَّة ولا يعلم الناس اصل هذه الخرافة . ولما مات الحاكم بامرهِ اختفى حمزة خوفًا عَلَى نفسهِ من الذي خلفهُ ولم يمكن للسلطان بعدئذٍ ان يمحو الذي زرعهُ حمزة والدرزي فصار الدروز طائفة سريَّة وتحصنوا في جبال الشام وظلوا عَلَى الاستقلال وهم الى اليوم يعرفون بالميل إِلَى الاستقلال وحب الحرب والتعاضد عَلَى كل عدو او معاند . ولما رأَى بهاء الدين ان طائفتهُ في خطر كبير بعد وفاتهِ اوصاهم قبل مفارقة هذه الدنيا بعدم قبول الطالبين في طائفتهم وهكذا قفل الدروز باب الانضمام اليهم وهم إِلَى اليوم طائفة صغيرة يحترمون رؤَسائهم ويعتقدون ان في بلاد الصين عددًا لا يحصى من اخوانهم في الدين وان حمزة سيظهر لهم مرة اخرى قادمًا من تلك البلاد . وكان الامراء التنوخيون الذين اعتنقوا هٰذَا المذهب الجديد اصحاب صولة وسطوة ولهم في الحروب الصليبيَّة فعال تذكر اعانوا بها سلاطين المسلمين عَلَى الافرنج وذلوا في اوائل القرن السادس عشر فعقبهم في السيادة الامراء المعنيون وهم من احدى قبائل العرب ايضًا ثم تلاهم في السيادة امراء بيت ارسلان ومشايخ بيت جنبلاط وعماد وغيرهم ممن لا يسعنا ذكرهم في هٰذَا الكتاب المختصر ولم يزل بيت ارسلان و بيت جنبلاط عَلَى السيادة بين الدروز إِلَى هذا اليوم